

## الغفران

### "مشير سمير"

الغفران هو موقف فكري - وليس عاطفي Emotional - يتسم بالنبل والسمو في عدم معاملة الآخر (المخطئ في حقي) بالمثل أو بما يستحقه، وبالتخلي عن حقي الإنساني وعن المطالبة بالتعويض. ولكي يكون الغفران حقيقياً لا بد أن يُبنى على أمرين، أو لا إدراكي للخطأ والظلم الذي قد ارتكب في حقي، وثانياً إدراكي لعدم استطاعة الشخص المخطئ في حقي على إصلاح ما قد حدث بداخلي نفسياً من جراء خطأه. يقول جان كريستوف أرنولد في كتابه (البحث عن السلام): "لا علاقة للغفران بالعدل، أو بوجود عذر لعمل الشر، إنه في الواقع يعني مسامحة شخص ما لأجل شيء لا يمكن إيجاد عذر له" (١). وهو ما يُظهر أبعاداً للنبل مثل الشفقة والرفق والتحنن. وهو ما يظهر في مثل المديونان، إذ رأى السيد عدم استطاعة العبد رد الدين تحنن عليه و أطلقه وترك له الدين. (مت ١٨: ٢٧)

قاعدة هامة: لا بد أن ندرك أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يصلح الأذى النفسي بحياة شخص آخر. الشخص الذي تعرض للأذى هو وحده الذي يستطيع أن يصلح ما بداخل نفسه.

ولكن هذا الموقف الفكري مبني على نبل وصدق ونزاهة داخلية في التعامل مع النفس. فالصدق مع النفس يدعونا لعدم الإنكار أو تزييف المشاعر، أي أن نعترف ونقر بأننا قد جرحنا وتألّمنا مما قد حدث معنا. وما أكثر الإنكار والتزييف الذي نراه يحدث تحت شعار الغفران، والغفران الحقيقي برئ منه تماماً. (مثل شهير: لأ، أنا غفرت له طبعاً وكل حاجة. أنا بس....). أن إدراكنا لجروحنا والتلامس معها هو القاعدة التي يستحيل بدونها حدوث الغفران الحقيقي. فإن لم نتلامس حقيقة مع جروحنا ونتألم بها فغفراننا لا يعدو عن كونه اصطناع نظري. ولذلك يقول بوس الرسول لنا "إغضبوا... (أف ٤: ٢٦) أي ببساطة أن نعبر عن مشاعرنا المتألّمة. فكيف نغفر شيئاً لم يجرحنا ولم نتألم به! فلا بد لنا من الإقرار - أمام أنفسنا على الأقل - بواقع مشاعرنا مهما إن كانت سوداء كالكراهية مثلاً. إن إنكارنا لجروحنا ولمشاعرنا لا يعبر إلا عن كبرياء وغطرسة وتعالى بشريين. إذ أننا لا نريد أن نعترف بأننا ضعفاء مثل باقي البشر قائلين للجرح، بل أننا نريد أن نقول أننا أكبر من ذلك.

إن إسطفانوس لم يكن أبداً يأتي إلى قرار الغفران لمن رجموه قبل أن يُرجم منهم، فالغفران ليس نظرية، فهو لا بد له أن يعيش تجربة الألم وهو يرى الأحجار تنهال عليه لكي تُتاح له عندئذ فرصة الاختيار الحر لصنع قرار واع سواء بالتنازل عن حقه البشري في التعويض، والصفح والغفران (لا تقم لهم هذه الخطية أع ٧: ٦٠) أو بالتمسك بهذا الحق وعدم التخلي عنه. الغفران لا يمكن أن يحدث أبداً قبل تلامسنا مع الألم من جراء ما قد حدث معنا، وإلا كيف يكون الغفران قرار سام ونبيل يعبر عن قلب رقيق وحنون؟! وهكذا أيضاً كبت المشاعر المتألّمة لا يعالجها، كما ذكرنا في مشكلة الألم، فكبت الألم أو محاولة نسيانه لا يحقق الغفران الحقيقي كما عرفناه سابقاً بل أنه يأتي فقط بغفران نظري مصطنع. فالغفران الحقيقي لا يتم تلقائياً بمرور الوقت، بل لا بد من مواجهة ما قد حدث مواجهة واعية واتخاذ موقف إرادي بالصفح والتغاضي.

الغفران كما قلنا هو موقف فكري وليس عاطفي، فإن اعتمدنا فيه على موافقة العواطف قد لا يحدث ذلك أبداً. إن العواطف بطبيعتها متغيرة، وهي تكون متألمة جداً حين يُخطئ شخص ما في حقنا خصوصاً لو كان شخصاً قريباً منا. فالعواطف غير مهياة أساساً لاتخاذ القرارات، بل إنها هنا قد تعيق اتخاذنا لقرار الغفران بقدر ما هي متألمة. أن العواطف حتماً سوف تتبع قرار اتنا الفكرية وتتصاع لها ولكن بعد وقت وليس بسهولة.

ومن ثم يجب تدريب الإرادة علي تكرار هذا القرار الفكري والاختيار النبيل مراراً وتكراراً أمام التحدي اليومي مع مشاعري أمام من يجرحوني (سبعين مرة سبع مرات مت ١٨ : ٢٢). فالغفران ليس خطوة واحدة أو موقف واحد بل هو مواقف واختيارات متكررة، وخطوات متتالية تجاه الموقف الواحد.

## المرارة

المرارة هي عكس الغفران. فالمرارة تحدث عند تمسكي بحقي البشري في الحصول على تعويض ممن أخطئوا في حقي، وهو الأمر الذي لن يحدث أبداً – كما ذكرنا سابقاً – حيث أن من أخطأ في حقي لن يستطيع أبداً أن يصلح ما قد حدث بداخلي نفسياً من جراء الخطأ. ومن وجهة نظر مسيحية فالمرارة هنا تعبر عن عمل غير مسيحي على الإطلاق. فالمسيح في مثل المديونان يأخذنا إلى بُعد أعمق من القوانين البشرية ليخبرنا بأن عدم الغفران ليس بالاختيار المطروح أساساً بعد أن غفر لنا الله كل ما علينا من دين أخلاقي واشترانا فأصبح كل ما لنا وما نحن عليه ملكاً له؛ فنحن في الحقيقة في ذواتنا لا نملك شيئاً يمكن أن يسلبنا الآخر إياه إذا كنا ملكاً لله. فإن تمسكنا ومطالبتنا للآخر بالتعويض لم يعد حق لدينا إن أردنا أن نتغير ونصير شبه المسيح! فالمرارة واحدة من ديناميكيات النظام الفكري القديم لعالمنا الداخلي والتي تقع على أكتافنا مسئولية خلعتها إن أردنا النمو والنضوج (أف: ٤: ٢٠-٣٢)، إذ أنها تبعدنا عن الاقتراب إلى الله مثلها مثل سائر القيم والمعتقدات والاتجاهات الفكرية الفاسدة التي يجب أن نتوب وأن نتحول عنها. فنحن عندما لا نغفر ننفضل عن الله لأنه غفر كل شيء على الصليب ونحن فيه لا بد أن نتقمصه ونعيش حياته وليس حياتنا (نموت نحن)، أي أننا نغفر كل شيء أيضاً. وأما عندما لا نغفر فإننا نخرج وننفضل عن حياة المسيح. إننا نرتكب الخطية والتعدي عندما لا نغفر، والخطية تفصلنا عن الله ومن ثم نعاق عن عملية الاتحاد معه والتغير والتشبه به. كما أن المرارة أيضاً تعبر عن كبرياء الإنسان المدمر في رغبته في أن يحصل على التعويض بحسب قيمه المعتادة.

وأما من وجهة النظر الدنيوية – غير المسيحية – فإن المرارة أيضاً ملفوظة بشدة إذ ثبت أنها من أشد أدوات التدمير الذاتي للإنسان. فالمرارة تثير انفعالات شديدة بالإنسان تؤثر على حركة الهرمونات بنظامه الجسدي، الأمر الذي يؤدي إلى العديد من الأمراض الجسدية والنفسية كالاكتئاب والضغط العصبي وبعض أنواع قرح الجهاز الهضمي والصداع النصفي وبعض أمراض القلب. وهو ما يرجعنا مرة أخرى لأهمية الغفران إذ أن أجهزتنا النفسية والجسدية بل وكل كياننا الأدبي غير مصمم للتعايش مع المرارة. فالمرارة تكسر ليس فقط القوانين الأخلاقية بل الطبيعية أيضاً، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الله يستبعد عدم الغفران من أن يكون أحد الاختيارات المتاحة لدى الإنسان. فهو خالقنا ويعرف جبلتنا جيداً ويعرف كيف تعمل أجهزتنا على أفضل وجه.

المرارة أيضاً تربطنا بالماضي دائماً في انتظارنا للتعويض، وفي هذه الأثناء يضيع منا حاضرنا ومستقبلنا وتضيع منا أيامنا وتمضي مقيدة بمن جرحنا فنفقد سيطرتنا على حياتنا وعلى ما نريد تحقيقه. ولذلك ليس من الغريب أن نجدنا لا شعورياً نكرر مع الآخرين نفس الأنماط التي جرحنا منها في الماضي. وذلك لأننا وبدون أن ندري صرنا مرتبطين وجدانياً بهذه الأنماط من شدة تركيزنا عليها في الغيظ والحنق والتمسك برغبتنا الشريرة في الحصول على تعويض، حتى تعلمناها وصرنا نكررها مع الآخرين من دون أن ندري. فكم من مرة أمسكنا بأنفسنا ونحن نعامل أبنائنا بنفس الطريقة التي طالما كرهناها من والدينا وأقسمنا في غيظنا ألا نكررها أبداً!

المرارة أيضاً تجعلني بارد المشاعر وقاسي القلب، إذ أنها تفرغني من الأخلاقيات النبيلة كالشفقة والتحنن واللطف والرفق إذ أن المرارة في ذاتها تخلو من هذه الأخلاقيات. فالمرارة تزيد من الخشونة والعذوانية، مما يعقد علاقتي مع الآخرين بصفة عامة حتى لو لم يجرحوني، إذ أن الحنق والفظاظة يصيروا سمات عامة في تعاملاتي من دون أن أدري كلما ازدادت المرارة بداخلي وتأصلت. هذا بخلاف الحواجز الدفاعية التي أبنيتها حول نفسي لكي أحمي نفسي من الجرح ثانية، وهو بالطبع ما يبني جدار سميك بيني وبين العالم الخارجي من دون أن أقصد.